الفصل التاسع عشر

«أحيانا لا تأتي، تغيب، فأتشكك في علاقتي بها، أتساءل إن كان وهما ما تصورته ألفة تجمعنا وتتيح لنا المشي سويا مؤتنسين ببعضنا البعض في طريق طويل، أو تجتاحني الظنون، أقول: لا تحبك، لا ترغب فيك، بل هي كعول الحكاية تستدرجك إلى سكك الندامة فإذا ما توغلت معها في الطريق تنكرت لك، وتركتك في الوعر». كتبت هذا الكلام في فصل سابق، كانت الكتابة تأتي ثم تمتنع، فتملؤني الظنون. بدا لي أنني أمر بفترة من تلك الفترات المقلقة. أجلس إلى أوراقي ثم أقوم، يوما يومين ثلاثة، لا أجد طريقا إلى قلبي، أقصد تلك الأفكار والمشاعر التي أرغب في الإفصاح عنها، ثم أجلس إلى أوراقي وأكتب بيسر غريب، وسرعة. ساعتها أعرف أن قصور اليد لم يكن عجزا بل انتظارا لما يؤلفُّه العقل في تلافيفه الغامضة، قلت لنفسي: تحلَّ بالصبر فهو حرفة الصيادين. انتظرت. انقضى شهر ثم شهران ثم أربعة، أعدت فيها قراءة ما كتبت، أستدرج الكتابة استدراجا، ثم أيقنت أنها لا تريد أن تأتي، أو أنني غير قادر على الذهاب إليها. قلت: امتد الشلل من ساقي إلى يدي وعقلي، صرت لا أعرف مقصدي. حين بدأت الحكاية بالولد المصاب بمرض في عينيه بدت لي الطريق واضحة. أردت الكتابة عن المربع الذي ولدت وعشت فيه، ولكن المربع المحدد بزمانه ومكانه ومعارفي انحلت حدوده فوجدت نفسي ضائعا وسط حشد من التفاصيل التي لا قبل لي ولا لكتاب مأمول أن يحيط بها.